

الفصل الثاني

«شعر الجمال»

(١) الجمال البشري

عبادة الجمال : تغنى التيجاني بالجمال البشري ، وكان حبه لهذا الجمال ذا أثر بالغ على حياته وعلى فنه ، فقد ملك عليه قلبه ، واستولى على عقله وحسه وتجرقت في الهوى والصبابا ت وألهبت في المزاهر الحنى والجمال الحبيب يعلم كم ألهبت فكري أسمى وأسهرت جفنى بل لقد بلغ حب الجمال الإنسانى عنده حد العبادة . وكأنه - كما يقول هو - قد جعل بين أنفاسه والحب عروة لا تنفصم ، فهذه الأنفاس التى تردد فى هيكله وتتوقف عليها حياته ، ويقوم عليها كيانه ، إنما نسج منها حبه ، وصاغ منها غرامه . فصار انتزاع الروح من جسده ، كانتزاع الحب من قلبه :

وعبدناك يا جمال وصغنا لك أنفاسنا هياما وحباً

والجمال عنده سر مغلق وانز عويص ، بذل الشاعر كل ما فى وسعه ليفهمه وليسدر كقوته النافذة فى القلوب ، الطاغية على النفوس فما يزداد إلا بعدا ، وما يزداد انز الجمال إلا تعقدا . يتسرب إلى نفسه فيطنى عليها ، فإذا تأمله وجده على قربه بعيد المعنى عسير التفسير :

وحبوناك ما يزيدك يا الفز وضوحا وأنت تفتأ صعبا
وذهبنا بما يفسر معنناك بعيدا وأنت أكثر قربا

وعجيب أمر هذا الجمال ، تدركه على وجوده الحسان مختلف المظاهر
متعدد الصور ، يسرى إلى القلوب في خفاء كأنه السحر ، وبلقى
بفعله في الروح كأنه الفتنة ، فمن ذا الذي وزع هذه المفاتن ، وعلم
القلوب الحب :

من ترى وزع المفاتن يا حسن ومن ذا أوحى لنا أن نحبا
من ترى علم القلوب هو الحسن وقال اعبدى من السحر ربا
من ترى صنع ذلك كله ، لاشك أن صانعه قوة هائلة جبارة . إنه
الله صانع القلوب التي يغمرها الجمال ويفرقها الحسن وتطفى عليها المفاتن ؛
إنه صانع القلوب التي تنصب في قالب المحاسن صبا

وما عبد الشاعر الجمال إلا بعد أن وقع في نفسه الموقع الذي لا غاية
بعده ، ولا أدل على ذلك من صيحاته الملهية التي يتجه بها إلى طرير
الشباب يسأله : من أين لك هذا الجمال الذي يشبه قطعا مذابة من نور
الصباح أو شعاع الشمس ، يضطرب من نظر إليه ، ويبعث فيه النشوة كما
تبعث الأنعام الحلوة الطرب والنشوة في النفوس ، فكأن للحسن أوتارا
ترسل أنغامها ، وتبعث الشجو في قلوب المحبين ، فمن أين جاءت هذه القوة
التي بثت في أوتاره هذه الأنغام الشاحية :

يا طرير الشباب من صاغ هذا الحسن في زهوه وفي استكباره
من أذاب الضياء فيه ومن نغم شجو الهوى على أوتاره
ثم تتوالى صرخات الشاعر ، وتبلغ حيرته أشدها ، ويصل انفعاله
بهذا الحسن ذروته ، فإذا به يسأل ويلج في الأسئلة ، ويصوغ أسئلته

قصيرة متتابعة آتم على قلق ممض ، وحيرة شديدة وتلف بالغ :
من رمى؟ من أصاب؟ من صور الفتنة؟ من زرها على أزراره
والفتور الذى بمينيك من مؤ . سحر الحياة فى أقطاره

ثم ينتهى إلى ما انتهى إليه فى الآيات البائية السابقة . لا يكاد يحس
بأثر الجمال على قلبه المصاب حتى يبحث عن الذى رمى قلبه وأصابه ،
وصور الفتنة ، وركزها فيه ، فإذا هو قوة هائلة جبارة لا يراها ولا يسمعها
ولا يلمسها ، ويدهش أكبر الدهش كيف يتأتى لها أن تنفذ إلى قلب
محجب ، وتتسلل إلى باطن منيع . هو الله الذى صنع الجمال وتولاه .
فلم يدعه لصروف الزمن ، تعبت به ، وتغير عليه بل ظل يحرسه ويكأوه :

صاغ هذا الجمال من لم ينم عنه — لصرف الزمان أو أغياره

وهكذا كان يسكن التيجانى إلى الله كلما عرضت له هذه الحيرة ،
وينتهى إليه كلما ثار فى نفسه التساؤل عن مصدر الجمال وعلة تأثيره
فى النفس .

وهكذا كان ينتهى التيجانى من طريق حبه للجمال البشرى إلى
الإيمان بالله . فما أجدر صانع هذا الجمال بأن يُعبد . بل جدير بنسب
— أيضا — أن نعبد هذا الجمال لأنه مظهر من مظاهر قدرة الله ،
فتأمل مفاتن الجمال ومحاسنه فى خشوع وخضوع — كما يصنع العابد فى
صلاته — تقربا إلى الله وزلفى إليه :

نظرة كالصلاة زلفى إلى الله وقربى لعزه واقتداره

ومهما يلاق هذا القلب من انجذاب ، أو افتتان ، من تعب أو ألم ،

فإنه قلب حر يهيم كما يشاء ، لا تحده حدود ، ولا تقيد قبود ، طليق
طلاقة الحياة :

قلب كقلب الحياة بين حنايا الأبد

ولم لا ؟ ونفسه قبس من نور الله ، أو موجة من بحر لجي ، تنتقل
صافية بين مظاهر الكون ، وتتوزع حرة على مفاتن الوجود :

هي نفسى إشراقة من سماء الله تحبو مع القرون وتبطل
موجة كالسما تقلع من شط وترسى من الوجود بشط
خلصت للحياة من كل قيد ومشيت للزمان في غير شرط
كلما احتاجها الحنين استظلت بحبيبين من يهود وقبط

والبيت الأخير ينهنا إلى أمر جديد ؟ أكان التيجاني حقاً يحب
بعض الحسان من النصارى واليهود ؟

حبيباته :

في ديوانه (ص ٤٦) أن دار الشاعر كانت قريبة من حى المسالمة
في أم درمان ، وكان للشاعر في هذا الحى غدوات وروحان بين حسانه
الفاقتات ، ولا أدري أكان من بينهن حسان من النصارى أحسن الشاعر
أم لا ، ولكن يخيل إلى أن الشاعر قد خص فتاة نصرانية بحب عميق .
ومن اليسير على من يتصفح ديوانه أن يحكم بأن كثيراً من شعره الغزلى
ينطبق على حبيبة معينة . ففي هذه القصائد والمقطوعات الغزلية ، بل في
معظم شعره الغزلى تسترعى العيان دون سائر الأعضاء انتباهه من بين
محاسن محبوبته الحسية فيقول مثلاً :

ووهبنا لك الحياة ولجئنا بنايعها لعينيك قربى

وفي قصيدة أخرى :

عينك هاتان وقد صيغتا من كبرياء الحسن أو مجده

وفي قصيدة أخرى :

والفتور الذى بعينك من مو • سحر الحياة فى أقطاره
ثم أشير للقارىء إلى قصائد أخرى تغزل فيها بعيني محبوبته ، يجدها
على الصفحات ٢٢ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٧٨ من الديوان .

وهو يصرح بحبه بعض حسان النصارى فى قوله :

وجن بك الهوى فهنا غرير علقت به ومن هنا حبيب
وتلك وفى معاصمها سوار وذلك وفى ترائبه (صليب)

وقوله :

ولقد تعلم الكنائس كم أنف مدل بها وخد مورد
واقد تعلم الكنائس كم جف — من منضى وكم جان منضد

وقوله :

آمنت بالحسن برداً وبالصبابة ناراً
وبالكنيسة عقداً منضداً من عذارى
إيمان من يعبد الحس — فى عيون النصارى

كل هذا يرجع أن الشاعر قد تعلق تعلقاً شديداً بفتاة نصرانية ،
وربما ألهمته كثيراً من شعره الذى تغنى فيه بنغمات الجمال البشرى ؛ وكان
لها أثر كبير فيما نظن ، فى إلهاب شاعرية الشاعر ، ودفعه إلى نزعة
صوفية واضحة .

ولقد تعلق التيجاني بفتاة لبنانية ، صاغ فيها شعراً رقيقاً عميقاً ،
لا يقل رقة وعمقاً عن مقطوعاته السابقة . يُخَيَّلُ إلى أنها هي فتاته
النصرانية التي خصها بحبه ، فلنستمع إليه وهو يوجه إليها هذه
الآيات الرقاق :

يا (هذه) عمرك الله	هل سمعت بقدس
قوى يقيم بجنبي	بين سهم وقوس
رمته ليلي بجنيك	واستعاذت بترس
وأنت يا ابنة لبنا	ن تعبثين برأسى
كفأك سحراً وحسبي	ما قد رأيت وبسى

والسياق يحتمل أن تكون (هذه) هي الفتاة اللبنانية التي صرح بها
في البيت الرابع . والشاعر هنا مجنون بحب هذه الفتاة ، بل هو بعينه
هذا المجنون الذي تروى الأسطورة أنه أحب ليلي العامرية ، تمثل
في شخص الشاعر ، بين سهم وقوس ، رمت بهما الفتاة فاستقر في قلبه ؛
أما هي ففي مأمن من أن تصاب بسوء ، لأنها مدرعة بترس منيع هو
جمالها وسحرها وفتنتها . إلا كُفِيَ أيتها الحسناء عن هذا السحر النافذ
الذي يعيث بعقل ، ولا يصيبني منه إلا الجنون والتدله . حسبي ما قد
لقيت منك .

هذه الفتاة ومثيلاتها ، قد فتنَّ الشاعر عند ما تحدث عن جمال مدينة
الخرطوم فتغنى بحسان الشام وخصمن بالتصريح دون سائر الحسان :

ماج بها الشام ولبنانه	والمدن الرائحة الفسادية
طوقها بالحب غلمانه	وغيده اللاعبين اللاهية
أضنى عليها الحب فتانه	وزانها بالاعين الزاهية

والذى نلاحظه أننا لا نجد للتيجاني شعراً صريحاً يقرر أنه أحب فتاة من بنى جنسه حباً قوياً مسيطرأً على نحو حبه للفتاة النصرانية . ولا نكاد نجد في ديوانه غير قصيدة عنوانها (المصير) يبدو أنه تغنى فيها بحب فتاة ، لعلها سودانية ، يقول فيها :

فيا وداعاً حالماً كالملآنك تهبط من حجرات الأبد
يرف عليه شباب الفنون وتبرق في وجنتيه (الفصد)

ومهما يكن فإن حب التيجاني تلك النصرانية قد غلب على كل حب ، وملك عليه شغاف قلبه ، ولعل هذه الظاهرة تؤيد نظرية القائلين بأن الحب يزدهر ، ويقوى ، ويشتد ، حيث وجد التباين والاختلاف بين الجنسيتين المتحابين ، في اللون ، وقسمات الوجه ، والطبيعة ، والمكانة الاجتماعية ، والنسب . ونارنج الحب عند العرب مثلاً يؤيد إلى حد كبير هذه النظرية . فقد اشتدت ظاهرة الحب ، وأنتجت نهضة الشعر الغزلى في صدر الإسلام في الحجاز ، بعد أن فتح العرب كثيراً من الولايات والأقاليم ، واختلطت الأجناس المختلفة في هذه البلاد ، ووزعت الجوارى المختلفات الألوان والأجناس والطبائع والمكانات الاجتماعية على الفاتحين ، وبيعت في الأسواق ، وأهديت كما تهدي الطرف ، وأصبح مجال الاختلاف والتباين واسعاً بين العرب من جهة وهؤلاء الجوارى على اختلافهن من جهة أخرى ، وأصبح العربى يرى فيما ملكت يمينه الجارية الرومية أو الفارسية أو الهندية أو الشامية . ومن ثم وقع العرب في حب عميق مع هؤلاء الجوارى ، وتعلقوا بهن تعلقاً شديداً ، حتى لاحظ المؤرخون القدماء أن الإمام كن

أكثر حظوة لدى الرجال من الحرائر ، وحاول الجاحظ أن يفسر هذه الظاهرة ، ولكنه أغفل فكرة التباين هذه التي كانت أو لعلها كانت من أسباب تفضيل العربي للجارية وإيثارها على زوجها . وكان العربي يختار زوجة عادة من بنى جنسه ، أو على الأقل كان يختارها من طبقة ومنزلة لا تفترق كثيراً عن طبقته ومنزله . لهذا كان حبه للجارية أقوى ، وقلبه إليها أميل .

وليس معنى هذا أن الحب مقصور على التباين ، بل قد يحب المرء من تقاربه نسباً أو لوناً أو طبيعة ، ولكنه لا يصل في العادة بحبه إلى درجة التذلل والعشق والجنون ، لهذا قلنا إن الحب يزدهر ويشتد ويقوى حيث وجد التباين ، ولم نقل مثلاً إن الحب لا يوجد ولا ينشأ إلا حيث وجد التباين . ولا يقدح في صحة هذه النظرية ما رواه القدامى من أخبار مجنون ليلي الذي أحب ابنة عمه ، وهي من بنى جنسه ، وأصيب بالجنون من أجلها . فإن هذه الأخبار قد فرغ القدماء والمحدثون من الشك في صحة نسبتها إلى هذا المجنون إن كان له وجود تاريخي ، وأوضحوا شكهم بأسباب عدة ليس منها نظرية التباين هذه ، ونحن نضيفها إلى هذه الأسباب كسبب هام يزيد في تأييد ما ذهبوا إليه . والمجال هنا لا يسمح بالإفاضة في شرح هذه النظرية وبيان كيف يزدهر الحب على أساس التباين وكيف نوفق بين هذا التباين وبين ما ينبغي أن يكون بين المتحابين من تقارب وتغامر . حسبنا أن نقرر أن هذه النظرية ربما تؤيد تلك الظاهرة التي رأيناها في حب التيجاني لهذه الفتاة النصرانية ، ذلك الحب القوي الغلاب . طفر التيجاني إلى مرحلة أسهى من حب هذه الفتاة أو تلك . تطور

حب التيجاني من حب ضيق الحدود إلى حب أفسح وأوسع . فبعد أن رأيناه يحب هذه الفتاة النصرانية أو تلك اليهودية أو تلك السودانية ، نراه يحب كل ما يمت بصلة إليهن ، ولا تعجب أن ينتهى إلى أن يحب من أجل حبيباته أهلن ، وأقاربهن ، وبيوتهن ، والطرق التي تقع فيها بيوتهن ، وألوان الثياب التي يترن بها ، والأوطان التي ينتمين إليها ، والمعتقدات التي يؤمن بها . بل يحب صوراً أخرى من الجمال لأنها تذكره بجمالهن .

أحب التيجاني من حبيبته عينها ، ومن أجملها أحب كل عين حتى صار قلبه نهبا لكل عين في الدنيا :

تفرغنى الهوى فلكل عين تمر على في الدنيا نصيب

ووصف مدينة الخرطوم وأعجب بما حوته من ألوان الجمال والسحر والفتنة ، ولكنه لم يقف من الأعضاء الحسية إلا عند العيون الساحرة :

مدينة السحر مراح العجب ومفتدى أعينه الساحر

بل كل مكان يستوعب هذا الجمال ويصونه ، فهو مكان محبوب لديه معشوق في نظره ، فهو يؤمن بالكنيسة حين تضم بين جدرانها الحسان ، ويزداد إيمانا بالمسيح حين يطوف حول تمثاله هذه المخلوقات التي صاغها الله حلوة جميلة :

آمنت بالحسن بردا (١) وبالصبابة نارا

وبالكنيسة عقدا منضداً من عذارى

وبالمسيح ومن طاف حوله واستجارا

إيمان من يعبد الحسن ————— ن في عيون النصارى

(١) لا نظن أن سكان الجهات الباردة يوافقون الشاعر كثيراً على هذا التعبير !

ومن ثم كان الجمال أمتع شئ. لدى التيجاني ومتنفسه في الحياة ،
وما كان أصدق صيحته : رب ما أعظم الجمال وأجمل !

إلى هنا تغنى التيجاني بالجمال البشرى ، وسنرى أنه قد أولع بنوعين
من الجمال الآخرين ، وفي ظني أنه لم يصل إلى تذوقهما إلا على أثر تذوقه
لهذا الجمال البشرى ، أو نتيجة اتساع (رقعة الحب) في نفسه .

غزل يسمو على الجسد

على أن غزل التيجاني يتميز بطابع معين ، فقد سبق أن قلنا إن
التيجاني قلما يصف الحبيبة وصفا حسيا ، ولم يردد إلا وصف العينين^(١) ،
ولكن حتى وصفه للعينين لم يكن مقصوداً لذاته ، بل كان يتطلع دائماً إلى
ما وراء العينين من معانٍ مستورة ، وقوى خفية . هو لا يهتم من العينين
صفة الدعج أو الحور أو السعة أو غير ذلك مما يقف عنده الشعراء
الحسيون ، ويعنون به ، ولكنه يرى فيهما عالماً أوسع ، وحياة أزخر . فهما
زهو وكبرياء ، وفيهما عالم يعج بالسكر ويمتلئ بالقوى الخفية العاتية :
والفتور الذي بعينيك من موء سحر الحياة في أفطاره

وفيها رحاب واسعة يأوى منها المحب حين يتأمل فيها إلى ظل ظليل
وهدهو شامل ، وذرى منبع . كانت نفس المحب هائمة ، قلقه ،
مسلوبة الراحة فأصبح يستطيع أن يصُدَّ صروف الزمان بهذه المنعة ،
وأن يصون جانبه بفعل هذا السحر :

وفي عينيه مستذرى ومأوى لروحي وهي هائمة حريب
أصد بفعل سحرهما اللبالي فيمنع جانبي السحر الرهيب

(١) ورد في شعره غزل بالوجه والجبين والشعر والثغر ولكن قليل نادر .

وهو إذا قال الشعر الرائع في وصف عيניה إنما يستمدّه من سحرهما ،
ويستلهمه من ذلك الشيطان العاقي الذي يكمن فيهما ، ويستقيه من تلك
الراح العذبة التي ينطويان عليها :

أنت يا واهب الحياتي ويا ملهم فني
إنما أصنع من كرمك صبيان ودي
إنما أسحر عينيـك بما تسحر مني

وهكذا يتسامى التيجاني في غزله عن الجسد ، ويسمو إلى تغنى الجمال
وأثره على قلبه ، أو أثره على الجميل المحبوب . فالتيجاني في شعره أبعد
الناس عن الأوصاف التي تقف عند الجسد ولا تكاد تتخطاه .

الجمال المضيع :

ومن الطبيعي أن يكون حزن التيجاني شديداً على فقد حبيب أو
ما يلاقيه الجمال في الأرض ، أحيانا ، من عنيت الطغاة ، وقسوة غلاظ
الحس ؛ حزن يكافئ احتفاله بالجمال وتعلقه به . ولعل أبلغ مثل
لذلك قصيدتان ، إحداهما عنوانها (على قبر حبيب) يقول فيها :

هنا جمال الحياة يطوى	هنا عيون الهوى تنام
هنا سهام القضاء نشوى	وها هنا طاسة وجام
أصاب رمّاحه وأشوى	فموجـل الشرب والمدمام
وهذه كاسه تروى	من نحرها الأرض والرجام

أبيات رائعة تمثل صدق الشاعر وإخلاصه في رثاء هذا الحبيب
الجميل ، وقد ووى التراب وأصبح جثة هامدة . الذي وورى التراب

ليس هو الشخص الحبيب ، ولكنه جمال الحياة نفسه ، لأن الشاعر قد أحس أن الحزن الممض قد سلبه الرغبة في التمتع بالحياة بعده ، فكأنما فقد بفقده كل متعة ولذة . فلن يستمتع بجمال بعد أن فقد الحبيب الذى اجتمعت فيه كل صور الجمال ، وتركزت فيه كل آمال الحب ، انطوى جمال الحياة بفقده ، ونامت عيون الهوى بموته .

والعجيب أن يصوب القضاء سهامه إلى هذا الحبيب ، وكان في الحبيب من السحر ما أغرى هذه السهام أن تعب من هذا الجمال حتى سكرت ، وامتصت آخر ما في هذا الحبيب من سحر وفتنة ، وتركته جثة هامدة كما يترك الشارب الطاس والكأس ملقنين على الثرى فارغين .

أما عليم القضاء ، أنه قد أصاب رمّاحه ، صانع رمّاحه ، وهو الحبيب الذى كان يصنع الموت بما له من سحر ويعجل الردى لما فيه من فتنة ، ثم أما درى القضاء أنه قد أصاب بسهامه المسمومة ، من حيث لا يدري ، هؤلاء العاشقين الذين كانوا يسكرون بسحر جمال الحبيب ، وينتشون بنشوة حبه .

والآن ها هي ذى جثته كالكأس ، لا يشرب من خمرها ، إن كان فيها خمر ، إلا الأرض وحجارة القبرا

أما القصيدة الأخرى فهي قصة مؤثرة لحسناء اسمها قر ، كانت قد أحبت فتى ، ولكن أهلها آثروا أن يزوجوها من فتى آخر ، له ثروة وغنى ، فجن جنونها ، ورآها الشاعر مرة وهي نائمة في ثوب خلق تحت ظلال الأشجار في مدينة الخرطوم ، وأحب أن أنقل هنا إلى القارىء

أبياتاً منها :

هكذا يا قلب مُجَنَّتْ قمر	وهي في أزهرٍ ما كان القمر
كالربيع الغضَّ وجهه نَضِرُ	وصباً مثل بواكير الزَّهر
حسبوا يا مُنْكَرَ ما قد حسبوا	قلبها الخافق يُشْرِى ويُبَاع
وهبُّوها للردى إذ وهبوا	للفتى اللذة منها والمتاع
ضَلَّةً جَمَعَ أهلوها الرِّفاقا	وأداروا طلباً في طلب
فَرَضُوا الصمت عليها والوفاقا	وأبوا إلا بريق الذهب
قل لهم إذ خنقوا في سرها	صرخة القلب وآمال الشباب
إن قدرتم فانزعوا من صدرها	هبة الحب اقتساراً واغتصاب
لم تصوغوا قلبها الخافق حتى	تفرضوا الحب عليها والحبيبها
فدعوها إنما تسمع صوتاً	قاسياً بين حناياها رهيباً
وهنا تحت ظلال الشجر	أخذت عيناي في الليل شبح
نائماً كالهم ملقى الأزر	كلما زايله الظل وضع
هي أي والله عينها وفما	هي أي والله حسنا وشبابا
قمر أحى العذارى حَرَمَها	طفر الحب بها بابا فبابا
يا جمالا جُنْ من ظلم الوجود	بعد أن جُنْ به الكون وهاما
أفأن لم ترض في الحب قيود	هكذا يرضى به الأهل مقاما

وَمَنْ أَقْدَرُ مِنَ التَّيْجَانِي عَلَى الْإِحْسَاسِ بِحُبِّ الْفَتَاةِ ، وَهُوَ الَّذِي
جَرَّبَ أَلَامَ الْحُبِّ وَأَمَالَهُ . وَمَنْ أَقْدَرُ مِنْهُ عَلَى السَّخَطِ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ
الَّذِينَ أَغْرَاهُمْ بِرَيْقِ الذَّهَبِ ، وَهُوَ طَالَمَا سَخَطَ عَلَى الذَّهَبِ وَأَصْحَابِهِ ،
وَعَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ ظِلْمِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ خَنَقُوا صِرْخَةَ الْقَلْبِ فِي سِرِّ هَذِهِ الْفَتَاةِ ،
وَحَاحِلُوا أَنْ يَغْتَضِبُوا مِنْ صَدْرِهَا هِبَةَ الْحُبِّ ، وَأَنْ يَقْفُوا فِي سَبِيلِ حُرِيَّةِ
الْقَلْبِ ، وَهُوَ الَّذِي تَغْنَى بِهِ هَذِهِ الْحَرْبَةُ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ مِنْ شِعْرِهِ .

وَلَيْسَ أَبْلَغُ فِي النَّفْسِ مِنْ أَنْ يَعْزِضَ التَّيْجَانِي هُنَا أَلْوَانًا مِنْ مَشَاعِرِ
مُتَعَدِّدَةٍ مُتَشَابِكَةٍ : شُعُورُ الْفَتَاةِ الَّتِي أَحْبَبَتْ وَأَخْلَصَتْ فِي حُبِّهَا ، وَشُعُورُ
أَهْلِهَا الَّذِينَ فَرَضُوا عَلَيْهَا الصَّمْتَ ، وَأَكْرَهُوَهَا عَلَى مَا لَا تُحِبُّ ، وَشُعُورُ
الشَّاعِرِ الَّذِي يَعْطِفُ عَلَى الْفَتَاةِ وَيَذُودُ عَنْهَا قَسْوَةَ الظَّالِمِينَ .

ثُمَّ لَا نَقْصِي تَوْفِيقَ التَّيْجَانِي فِي تَصْوِيرِ جَمَالِ هَذِهِ الْعَذْرَاءِ الَّذِي كَانَ
يَحْطِ أَنْظَارُ النَّاسِ بِلِ الْكَوْنِ كُلِّهِ ، ثُمَّ قَضَتْ قَسْوَةُ الزَّمَنِ أَنْ يَبْقَى بِجَمَالِ
هَذِهِ الْفَتَاةِ الْبَرِيَّةِ رَخِيصاً فِي الطَّرِيقِ ، فِي جَنَنِ الظَّلَامِ ، تَحْتَ ظِلَالِ الشَّجَرِ ،
تَنْقَعُهَا عَيُونُ الْمَارَةِ وَهِيَ مُلَاقَاةُ كَالْهَمِ الْجَائِثِ عَلَى الصَّدْرِ ، وَثِيَابُهَا عَلَى
الْأَرْضِ تَتَنَاقَبُ جَسَدُهَا الظَّلَالِ وَالْأَضْوَاءُ ، فَتَبْدُو حِيناً وَتَخْتَفِي حِيناً ،
وَمَا كَانَ أَشَدَّ دَهْشَةَ الشَّاعِرِ حِينَ رَأَى هَذَا الْجَمَالَ فِي هَذِهِ الْهَيْئَةِ ، لِجَعْلِ
يَنْفَرِسَ فِي أَجْزَاءِ جَسَدِهَا ، وَقِسَمَاتِ وَجْهِهَا ، لَا يَكَادُ يَصْدُقُ أَنَّهَا هِيَ ،
وَأَخِيرًا يَقْتَنَعُ :

هِيَ أَيْ وَاللَّهِ عَيْنًا وَفَاءً هِيَ أَيْ وَاللَّهِ حَسَنًا وَجَمَالًا

(٢) الجمال الاول

الحب ووحدة الوجود

سبق أن قررنا أن صدق التجاني في حبه هذه الفتاة النصرانية ، قد
هيا له أن يحب مكان عبادتها ، وعقيدها ، وكل عين في الدنيا تذكره
بغيرها ، وكل جمال في الدنيا محبوب من أجلها أو قيس من جمالها .
ولا شك أن هذا الحب — ولا يستغرن القاريء ذلك — كان من
البواعث التي قوت من إيمان التيجاني بالله ، وبالتسليم بقدرته (صانع
الجمال) .

ولا يبعد أن يكون التجاني قد حدث نفسه أن صانع الجمال لا بد أن
يكون جميلاً ، أو أن يحب صانع الجمال ، لأنه استطاع بقدرته أن يصوغ
صور الجمال في الأرض ، وأن يصنع بنوع خاص صورة هذه الحبيبة أو
تلك من حبيباته الحسان .

ومن ثم اشتد تعلق التيجاني بالله ، وجعل يسلك في حبه طريقة الأول .
فاذا كان التيجاني قد أحب كل ما يتعلق بفتاته في هذه الأرض ، فهو
هنا يحب على هذا المنوال ، كل ما يتعلق بالإله في الأرض والسما ،
ولكن ما يتعلق بفتاته ، مهما يبلغ ، لا يعدو شيئاً قليلاً بالنسبة إلى ما يملكه
الإله الأعظم سبحانه . كل شيء في الوجود متعلق بوجوده سبحانه . فليس
المجال هنا مختصاً بكنيسة أو عقيدة ، أو عرض من أعراض الحياة ينسحب
حب الشاعر عليه ، بل المجال هنا يعم الأرض والسما جميعاً . لقد كانت
الأشياء المحبوبة من أجل فتاته محدودة معدودة ، أما الآن فقد اتسعت

(منطقه الأشياء المحبوبة) من أجل الله ، فشملت كل شيء في العالم الأرضي وفيما وراءه من العالمين .

وكذلك ذهب التيجاني (مذهب وحدة الوجود) الذي عرفه الصوفية من قديم ، وهو مذهب يعتقد كثير منهم ، لكن لا يفتن إلى حقيقته إلا من وصل في حبه إلى الذروة . فلا شك أن فريقاً من هؤلاء الصوفية لم يتح له أن يفهم هذا المذهب حق الفهم ، بل جازوا فيه العرف والتقليد ، ولم يكلفوا أنفسهم تعمقه والتغلغل إلى باطنه ، أو لم يتح لهم تجربة من تجارب الحب البشري قبل أن يعتقدوا هذا المذهب . هذا الفريق تلقى مذهبه من الخارج ، ولم يتلقوه من صرخات قلوبهم ، وهمسات أقدتهم . أما الذين أحبوا حباً بشرياً ، ثم انصرفوا ، لسبب ما ، إلى هذا الحب الإلهي الأسمى ، هؤلاء قد فهموا المذهب وتعمقوه . أحبوا المحبوب الأسمى ، سبحانه ، حباً عنيفاً ، قويا ، على نحو سلوكهم في حب الجمال البشري^(١) . هؤلاء فعلوا ما فعله الأرضيون في حبهم ففزعوا إلى أحلامهم

(١) الراجع أن أول من استعمل فكرة الحب الإلهي في أوساط الصوفية ، السيدة رابعة العدوية التي توفيت سنة ١٨٥ هـ . يقول فيها الشيخ مصطفى عبدالرازق باشا أنها هي أول من هتف في رياض الصوفية بنفحات الحب شعرا ونثرا (دائرة المعارف الإسلامية . الترجمة العربية مادة تصوف) ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي إن السيدة رابعة العدوية (كانت عازقة على الناي ، تشارك في شهوات الجسد بكل فوريتها وعرامتها . . . ولما أن بدأت التوبة كان عليها وهي الخارجة من دنيا الشهوات ، أن تدخل عنصر العاطفة الغرامية الحارة ، لهذا فنحن نفترض أن عنصر الحب بمعناه الحسي مرفوعا إلى الألوهية ، قد أدخلته رابعة في حياتها الروحية نتيجة لفترة الضلال واللهو الآثم التي مرت بها ... ومن الأقوال التي تخلفت لنا : (حكى =

وغاصوا في بحار التصور ، حتى قويت خيالتهم ، واشتدت حساساتهم نحو
الإله المحبوب ، فأحبوا كل ما يتعلق بالإله ، وعشقوا كل ما له صلة
بالحالق ، وأى شيء لا علاقة له ، سبحانه ، به ؟

ثم وصلوا إلى ما وصل إليه صوفية الجبال البشري ، فأصبحوا إذا
نظروا إلى أى شيء تصوروا فيه قبساً من المحبوب أو صورة منه . كل
شيء في الوجود مظهر من مظاهر الله سبحانه ، من إنسان وحيوان
ونبات وجماد ، وأديان وأجناس . ولقد عبر أبو يزيد البسطامي والحلاج
وغيرهما عن ذلك الشعور أو عن ذلك الحب في شطحاتهم المعروفة
(ما في الحجة إلا الله) و (سبحانه ما أعظم شأنه) وقول الحلاج :

مزجت روحي في روحي كما تمزج الحمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شيء مسني فإذا أنت أما في كل حال

ويروى أن ابن الفارض الصوفي المصري عشق جملاً اسقاء كان يكر
بالوقوف في الطريق الذي يمر فيه ليتلذذ برؤيته ، وكان يعشق برنية في
حانوت عطار ، يذهب إليها كل يوم ل يتمتع بمشاهدتها . ذلك أنه رأى

عن رواية المدوية رحمه الله تعالى أنها كانت إذا صارت العشاء قامت على سطح
لها ، وشدت عليها درعها ، وخارها ، ثم قالت : (إلهي ! انارت النجوم ، ونامت
العيون ، وغلفت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامي بين يديك !)
(شهيدة العشق الإلهي ص ٢٣)

ثم انتشرت فكرة الحب بين الصوفية وانتشرت مخاطبة الذات الإلهية على
نحو تنزل الشعراء في أحبابهم من البشر . ومن ذلك قول ابن الفارض يخاطب الذات
الإلهية :

يحتمر العاشقون تحت لوائى وجميع الملاح تحت لواكا

فى هذا الجمل وفى تلك البرنية ، ما رآه الحلاج فى نفسه وفيما تشتمل عليه
الجنة ، مظاهر مختلفة من المعشوق الأواحد سبحانه . أليس هذا الجمل
وهذه البرنية ، وهذه النفس أشياء تتعلق بالله . فهى إذن جديرة بأن
تحب ، بل هى جديرة بأن تكون صوراً مختلفة من هذا المحبوب . ولقد
حكى السراج فى لمعه عن مجنون ليلى قولاً يشبه هذه الوحدة ، ولكنها
وحدة خاصة بالجمال البشرى قال :

« كان المجنون إذا نظر إلى الوحش يقول : ليلي . وإن نظر إلى
الجمال يقول : ليلي . وإن نظر إلى الناس يقول : ليلي ، حتى إذا قيل
له ما اسمك وما حالك يقول : ليلي ، » .

ولا ينبغي أن ننظر إلى قول المجنون على أنه هذيان وتخليط
لا أكثر . بل ينبغي أن ننظر إلى هذا القول على أنه مرحلة يصل إليها
المحب الذى بلغ فى حبه الذروة ، حيث تختلط عنده الأشياء التى يراها
وبسمها ويحبها ، لأن كل شيء عنده جميل ولديه محب ، كلها عنده كليل
محبوبته ، بل هى ليلي نفسها كذلك وصل أصحاب وحدة الوجود من
الصوفية إلى أن الأدبان والأجناس كلها مظاهر مختلفة لذات واحدة .
إنما هو الحب الذى ألف بين المتفرقات ، وجمع بين المتنافرات ، ومن
أجل المحبوب أحبوا كل شيء ، ثم اعتقدوا من فرط حبه ، أنه
كل شيء .

وأغلب الظن أن إيمان التيجانى بوحدة الوجود قد جاءه عن حب
صادق لله ، أدى به إلى هذا المذهب ، دفعه إليه الباطن وأملته عليه
التجربة ، فلقد ذاق التيجانى تصوف الجمال البشرى ، وعرف فيه بعض

ملاح هذا المذهب ، أو بعبارة أخرى ، عرف هذا المذهب في صورة ضيقة ، ثم أخذ يطبقه بصورة أوسع في حبه لله . وفي قصيدته (الله) (والصوفي المذهب) أمثلة واضحة على إيمانه بهذه الوحدة . يقول في قصيدة (الله) :

قبل لي عنه في الزمان وحـدث به في سريرة الآناء
لأنه النور خافقاً في جبين الفجر والليل دافقاً في المساء
صفه رعداً مجلجلاً في السموات وصوتاً مدوياً في الفضاء
أو هدوءاً أو رقة أو هواءاً أو صدى للعواصف الهوجاء
هو إن شئت محض نار ونور وهو إن شئت محض برد وماء
نحن مجلى علام في كل دان من مرأى الوجود أو كل ناء

فالتيجاني يصرح هنا بأنه لم يعرف الله بالسمع أو التقليد وحده ، بل عرفه بالتجربة ، عرفه بعد أن تتبع الوجود ، وتأمل محاسن الطبيعة ، ومفاتيح الجمال البشري ، وقدرة العقل ، وتكون الجنين من النطفة ، وغير ذلك من أسرار الوجود ، فإذا بكل شيء ناطق بأن الله ، موجود ، قادر ، ولكن حب التيجاني لله قد أدى به إلى القول بأن الله ليس شيئاً منفصلاً عن الوجود ، بل هو يتمثل في الموجودات كلها ، صغيرها وكبيرها ، حقيرها وعظيمها ، محسوسها ومعنويها ، يتمثل في النور والنار والليل والرعد والهدوء والرقّة والهواء والبرد والماء ، بل يتمثل في نفوسنا :

نحن مجلى علام في كل دان من مرأى الوجود-أو كل ناء

كل ما في الكون يمشى في حناياه الإله
هذه النملة في رقتها رجع صداه
هو يحيا في حواشها وتحيا في ثراه

ثم ينظر إلى الأديان كلها نظرة تسامح ومحبة وإخاء ، ويعجب من هؤلاء المسلمين الذين يحقدون على أصحاب البيع من النصارى ، ومن هؤلاء الذين يتعصبون لدينهم ، ويثورون لمجد كنيسهم ، ولو أنهم نظروا إلى الأديان نظرة واسعة ، سامية ، فاحصة ، وتغافلوا إلى حقيقة الوجود ، ولمسوا بأيديهم مر الكون ، انظروا إلى الأديان جميعاً نظرة حب وعطف وتقدير ، فكلها في الأرض مشاعل هدى ، وبواعث خير ، ورسالات سلام ومحبة ، واعلموا أن بنت وهب ، شقيقة لمريم العذراء :

ها هنا مسجد مفيظ على ذى البـيـع الطهر ، والمسوح الوضوء
وهنا راقب من القوم ثورا ر لمجد الكنيسة الزهراء
كلها فى الثرى دوافع خير بنت وهب شقيقة العذراء (١)

(١) تتمثل هذه النظرة إلى الأدب عند الصوفية القدماء كحكي الدين بن عربي والحلاج ولابن عربي في ذلك شعر قال :

لقد سار قلبي قابلا كل صورة
وبيت لأوثان وكعبة طائف
أدن بدن الحب أنى توجهت
فرعى لغزلان ودير لرهبات
والواح توراة ومصحف قرآن
ركائبه فالحب ديني وإيماني

حيرة العقل

ولكن الإنسان لا يتألف من قلب وحسب، بل له عقل أيضا، ولكل وظيفته (ودائرة اختصاصه) : القلب يحب ويكره ، ويرضى ويسخط ، ويفرح ويحزن ، وينقبض وينبسط ، وينزعج ويطمئن ، والعقل ينفي ويثبت ، ويبحث ويجادل ، ويفهم ويميز ، ويحدد ويقسم . والناس من قديم متنازعون فيما بينهم في أى السيلين أفضل في معرفة الله : أن يظل المرء متطلعا إلى الله بقلبه ، حتى يحبه ، ويطمئن إليه ، ويرى الناس من الجدل والقياس والتحديد والتقسيم ويستريح هو من نزوات العقل وتعمق التفكير واستدعاء الأدلة والبراهين أم أن يظل باحثا عن الله بعقله ، محاولا إثبات عقيدته بالدليل والبرهان ؟

والعقل يفترق عن القلب افتراق السيلين المختلفتين إلى النهاية الواحدة ، غير أن العقل أقدر من القلب على البرهنة ، كما يتميز عنه بأنه قادر على النفي والإثبات في الشيء الواحد ، ولا تكاد تجد قضية من القضايا تطرح أمام العقل إلا وفي مقدوره أن يجمع لها شهود نفي وشهود إثبات . وهذه طبيعة العقل : ومن هنا يرد الشك كثيرا على الباحثين . وشاعرنا التيجاني قد آمن بالله إيمانا قلبيا صوفيا ، آمن بالله بعد أن أحبه بقلبه ، وصدق في حبه . ولو أنه وقف عند هذا الإيمان لأزاح واستراح .

ولكنه ككل إنسان له عقل ينازع القلب وظيفته هذه ، بل ما كان لشاب كالتيجاني ، مولع بالقراءة ، ميال إلى توسيع مداركه أن يغالب تعطش عقله إلى البحث ، وأن يهمل نصيب عقله في تفهم كل شيء حتى العقيدة .

وللتيجاني آيات عدة يمجّد فيها العقل ويشيد بقدرته العجيبة ،
ويسأل الله : من أين صاغت كفك هذا الطلسم الخفي المسمى بالعقل .
رب هبني رضاك من أين صاغت كفك الطلسم الخفي المستر
المسمى بالعقل عندك في الآ زال من سبّير الحياة وسيطر
وعبارته (رب هبني رضاك) تنطوي على اعتذار جميل الى الله
لتجرؤ التيجاني على هذا السؤال ، وفيها كذلك ما ينم على إيمان صادق .
ولكن هذا العقل الذي يمجّده التيجاني ، ويمجّد الله من أجله ،
ربما شرد به عن القافلة ، فضاق بشراده ذرعا وامتلأ قلبه غيظا وسخطا ،
فتحس في عباراته قوة تتفجر من جوانب نفسه :

أيها العقل أنت يا حيرة العقل — ولما تكن بنفسك أجدر
يا قُدْرَى تهدم الحياة وتبنيها وتذرو الوري هباء وعثير
أإله في الأرض أنت أم الشي طان ينهي في العالمين وبأسر
وجنون أم أنت عقل وموجود حقيق أم أنت وهم مصور
ويح هذا العقل ! لقد جرّه إلى ما كان يخشاه ! فقد ودع أمس يقينه !
ورمى به في مهمه قفر ، بعيد الأطراف ، تعصف فيه الرياح الهوج ،
فلا بد أنها قد اجترفت يقينه فيما اجترفت ، وذهبت به الى مكان بعيد
بعيد لا نهاية لبعده . لهذا فهو يعيش بلا إيمان . بلا يقين ، انطفأت
مصاييح اليقين من قلبه ، وفُتّر إيمانه الى غير رجعة : تأمل معي الآيات
الآتية ، كيف نفس الشاعر عن كربته في وزن منبسط وقافية منبسطة .
وليس أجدر لمن يتنفس الصعداء ، ويصعد الزفرات ، بعد كدٍ طويل
وجهد مضن ، من وزن طويل يستروح من خلاله ، ويرسل في أنثاته

أنفاساً مديدة ، ومن قافية ذات مقطع مفتوح يمتد في خلاله الشَّفس كما
في قوله (ريح) ، مصا (يبح) ، تبا (ريح) .

ودعت أمس يقيني في موداة غرباء تعصف في أعماقها الريح
تكسرت شمس دنيا القلب وانطفأت في عالم الروح من نفسى المصاييح
وبحى وريح الهدى المقبور ليس له رجعى وقد أوغلت في التباريح

مسكين هذا الشاعر ! لقد أوغلت فيه التباريح ، وأفلت يقينه من يده
هل رغمه ، وجاهد كثيراً ليحتفظ به ، ولكن أنظن أن الشاعر قد ودع
يقينه إلى الأبد كما يقول ؟ لا أنظن . إنما هي نفثة مصدور ومبالغة شاعر
قد ضاق بحيرته ذرعاً .

فها هو ذا الشاعر ، يضرب ناقته الشرود ، لعلها تنحاز إلى قافلة
عشيرته ، وها هو ذا يتألم لشكه فيبحث عن برد اليقين في كد وجهه ، بعد
أن خدعته الشكوك وغررت به :

ما كنت أوثر في ديني وتوحيدى خوادع الآل عن زادى ومورودى
غمرن بي وبحسبى أن راوبقى ملأى هربقت على ظمأى من اليد
أفرغتها وبرغى أنها انحدرت ييضأ كالروح في سوداء صينخود
أشك يؤلمنى شكى وأبحث عن برد اليقين فيفنى فيه مجهودى

وأحب هنا أن أقف عند البيتين الثانى والثالث . وهل يجوز أن نمر
عليهما دون أن نعرف ما فيهما من جمال رائع وفن أصيل . هنا بلجأ إلى
تجسيم المعنى حتى يقربه إلى الأفهام ؛ هذه العقيدة الزاخرة بالإيمان كالراوية
التي تشنى غلة العصادى تلك العقيدة التي تشنى حاجة البشرية إلى الاستقرار
والطمأنينة والتطلع إلى المجهول . هذه العقيدة قد تزعزعت بالشك وهريق

ماؤها على بقعة ظمأى من الصحراء ، ضاعت فلا أمل له فى الرجوع إليها ،
لقد أفرغها فى هذه البقعة السحيقة المتعطشة إلى الماء فابتلعها ، وكانت
عقيدة نقية طاهرة كالماء الزلال أو كالروح ، ولكنها الآن تسربت فى
بقاع سوداء مخيفة بها شره إلى الماء الزلال إذ أنها صبخود ، شديدة الحر .

ثم لا تنسى إلى جانب هذا التجسيم الرائع ، ما يتخلل البيتين السابقين
من موسيقى لفظية نشأت من الجمع بين ملامى ، وظمأى وبين بحسى فى
فى البيت الأول وبرغمى فى البيت الثانى ، وبين بيضاء وسوداء . ونشأت
من محاكاة المعنى لجرس الكلمات فى اجتماع الراء والغين فى قوله (أفرغتها
وبرغمى) . هذه العقيدة الراوية التى أفرغها فى البقاء بالرغم منه ، قد
انزعجت منه انتزاعاً ، وخطفت خطفاً ، فهى أشبه بهذا المريض الذى
لا يطبق جوفه قدحاً من الماء فيعيد من فيه مضطراً ، ولعلك تحس بهذه الصورة
متمثلة فى جرس الغين والراء مجتمعين - رغ رغ رغ - ثم فى قوله صبخود
هذه البقعة شديدة الحر ، الكريهة إلى نفسه كراهة اجتماع الصاد والحاء
فى هذه الكلمة .

فالشاعر مؤمن فى سريرة نفسه إيماناً صادقاً ، فإذا اضطره العقل إلى
الشك ، ضاق بعقله وبنفسه ذرعاً ، ويتمنى أن تزول شكوكه ، وأن يرجع
إلى إيمانه . وهى فترات تعترى عادة من يؤمنون بعقولهم ، أما الذين
يؤمنون بقلوبهم أو يؤمنون تقليداً ومحاكاة ، فهؤلاء لا مجال لأن يشكوا
ولا يتسرب إلى عقيدتهم ريبة . والشك عند الباحثين أمر من طبيعة العقل
كما قلنا ، وقد يما شك حجة الإسلام أبو حامد الغزالي فترة من فترات حياته ،
ثم رجع إلى حظيرة الإيمان .

والظاهر أن بعض المؤمنين السطحيين طعنوا فى عقيدة التيهانى ،

وعابوا عليه شكه ، وله في ذلك أبيات من قصيدة يمدح فيها المعهد العلمي الذي تعلم فيه بأم درمان . وكان بعض زملائه بالمعهد قد رموه بالكفر وطعنوه في دينه .

قالوا وأرجفت النفوس وأوجفت هلعا وهاج وماج قَسْـوَر غابه
كفر ابن يوسف من شقّ واعتدى وبغى ... ولست بعابى. أو آبه
قالوا احرقوه بل اصلبوه بل انسفوا للريح فاجس عظمه وإهابه

وهذا داء قديم عند العامة ، وقديماً رموا عباقرة الفكر بالكفر والإلحاد والزندقة . وأنا أزعّم أن الذين يرمون الناس بهذه التهم جزافاً إنما يظلمون أنفسهم وأرطانهم ودينهم بما يصنعون ؛ وإذا كان هؤلاء الطاعنين عبرة في التاريخ وإيمان به ، فإن التاريخ قد أثبت أن هذه التهم الباطلة ليست إلا لبذناً يفتح أبواب المجد على مصاريحها هؤلاء المتهمين ليسيروا في طريقهم قدماً يحملون مشاعل النهضة إلى الأمم والشعوب . كأن الحياة تصرخ في وجوه هؤلاء الطاعنين بأنها أقوى من هذه التهم وأعظم من تلك المطاعن .

ومهما يكن فليس التيجاني (أول كوكب نيفس الزمان عليه فضل شهابه) كما يقول : ولقد بدأت آثار التيجاني تشق طريقها إلى المجد ، وأحس السودانيون والمصريون بنبوغته وشاعريته ، واعترفت مصر بذلك في مهرجان أقامته لإحياء لذكراه عام ١٩٤٦ .

وغريب أن يرمى التيجاني بهذه التهمة ، وقد عاش يمجّد الله كلّما وجد إلى ذلك سبيلاً ، وعاش ما عاش للناس لا لنفسه ، رأى لبؤس الناس حتى كاد يبكي من أجلمهم دماً ، ونعاطف مع المجتمع الذي يعيش فيه حتى كاد

يذوب عطفاً عليه ، وحنيناً اليه ، وعلم الناس كيف يسمون بحبهم إلى
الروح الخالصة التي لا يشوبها الجسد ، وعلم الناس كيف ينظرون إلى
حاوراء الكون ، وفتح للناس بطريقته في الشعر باباً لعله كان جديداً كل
الجددة على شعراء السودان . وأخيراً أمرى بالكفر ، ويقال احرقوه أو
اصلبوه أو انسفوا للريح جثته النجسة . ثم لا يكون جوابه على هؤلاء
الطاعنين إلا ذلك العتاب الرقيق الرفيق الذي يوجهه إلى شباب المعهد .
هو معمدى ، ولئن حفظت صديقه فأننا ابن مرحته الذي غنى به
مازلات أكبر في الشباب وأغنى وأروح بين نخ ويا مرحى به
حتى رميت ولست أول كوكب نفس الزمان عليه فضل شهابه

(٣) جمال الطبيعة

وحب التيجاني لمظاهر الطبيعة شيء واضح كل الوضوح في شعره .
كانت الطبيعة مجال تأملاته ومحط سلواه . وكما أن عاطفة الحب البشري
تنشأ في النفس بالآلفة والعناية ، وطول التأمل في المحاسن ، فكذلك
تنشأ عاطفة حب الطبيعة ، في النفس من طول تأمل المرء في مظاهرها
والاطمئنان إليها ، والتماس الراحة عندها ، والتعلق بها يوماً بعد يوم ،
وساعة بعد ساعة . فلا تلبث أن تتولد في نفس المرء الآلفة ، ويشعر نحو
الطبيعة بالحب . هذا إذا كان المرء من أصحاب الإحساس المرفف بالجمال ؛
وبؤسفى أن أقول إن كثيراً جداً من ألم يؤت بعد هذا الإحساس ، وهو
موهبة تنغذى بالعلم ، ولا شك أن ما قاله الدكتور مندور في هذا الشأن
صحيح إلى حد كبير : (إن شعبنا لا يفتن إلى شيء اسمه جمال في شجرة أو
نهر ، في حجر أو غسق ، وإنما يعرف ذلك من سمع منا أو تعلم أن هناك

شيئا بهذا الاسم ، وأن الله لم يخلق الأشياء لما فيها من نفع مادي للإنسان
فحسب ، بل خلقها لمعان روحية ، سل مثلا فلاحا عن جمال شيء ، نحس
لساعتك أنك تخاطبه عن أمر خلا منه ذهنه على الإطلاق ! وليس لذلك
سبب غير الجمل ، فالإحساس بالجمال ذاته لا بد أن يوقظه العلم (١).

فاذا أتيت للمرء حساسية سريفة بالجمال ، وتعلق بمظاهر الطبيعة ، عامل
المرء هذه المظاهر معاملة السكان الحى ، فنظر اليها نظر الأليف إلى
الأليف ، والمحبة إلى الحبيب ، وتغزل في الطبيعة كلما اجتلى محاسن منها ،
وعاتبها إذا بدر منها شيء ، وخاطبها كأن لها من التفكير والإحساس
ما للمحبوب الحى . وهذا نحس به عند هذا المحب القديم الذى سمع أن
حبيبته سكنت فترة من الزمن عند جبل التوباد ، فتعلق المحب بالجبل ،
وأحبه ، وما كاد يراه حتى أجهش بالبكاء ، وقد خيل إليه أن الجبل
يكلمه ويراه ، ويشفق على حاله ، وأنه ما كاد يرمقه حتى كبر للرحمن ،
إنكاراً لما صار إليه المحب ، واشفاقاً عليه .

وأجهشت للتوباد حين رأيته وكبر للرحمن حين رآنى

ومثل هذا البيت الذى ينظر إلى مظاهر الطبيعة كأنها أم رؤوم ، أو
كأنها مخلوقات حبيبة ، أو كائنات قريبة إلى القلب ، قليل فى الشعر العربى .

النيل : أما التيجانى فقد أحس بجمال الطبيعة ، وأحبه ، وأوجد
بينها وبين نفسه صلة روحية . تغنى بجمال النيل ، وحسبك أن تتصفح
قصيدته (فى محراب النيل) ففيها (يتغزل) الشاعر فى هذا النهر ، كما يتغزل
فى أحبائه من البشر ، تراه يعدد محاسن النيل ويتحدث عن جماله بصفات

(١) فى الميزان الجديد ص ٨٧ .

يستعيرها من صفات إنسان حى . فالنيل عنده من ذرية الفراديس ،
 يفيض الجلال من نسبه ، كريم المحدث ، حضنته الملائكة ، ورفقت عليه
 بأجنحة خضر ، له رضاب كرضاب الحسناء ، تحدر فى الزمان ، وأفرغه
 على الشرق ، وله أحضان فسيحة تضم تاريخ الزمان كله ، وله كفان
 رحبتان :

أنت يا نيل يا سلسيل الفراديس نيل موفق فى مسابك
 ملء أوقاضك الجلال ، فرحى بالجلال المفيض من أنسابك
 حضنتك الأملاك فى جنة الخلد ورفقت على وضىء عبابك
 وأمدت عليك أجنحة خضراً وأضفت ثيابها فى رحابك
 فتحدرت فى الزمان وأفرغست على الشرق جنة من رضابك
 بين أحضانك العراض وفى كفيك تاريخه وتحت ثيابك

أليست هذه الآيات ناطقة بأن شاعرنا ينظر إلى النيل كأنه شخص
 يدب بروحه ، وكأن حى يعيش فى عالم اللحم والدم ؟

ولا تعجب أن ينظر التيجانى إلى الجماد نظرتة إلى السكائن الحى ،
 ويتغزل فى الجماد كما يتغزل فى الحبيب الحى . فاعمل هذا الاتجاه ، هو
 المقياس الصحيح للشعر الجيد . وإذا أردت أن تعرف مدى عمق الشاعر
 وصدق شاعريته ، فانظر إلى أى مدى ينسحب غزله على الجماد ، وكلما
 أمعن الشاعر فى التغزل بالجماد كأنه حى ناطق ، كان أقرب إلى المذهب
 الصحيح فى الشعر . وما ميزة الشعر الخالد إلا أن يكون غزلاً بهذا المعنى
 أى تغنياً بالجمال فى مظاهره المختلفة .

وقد لاحظ الثعالبي أحد قدماء النقاد (٤٢٩ هـ) هذه الظاهرة

فى شعر المتنبى ، لا فى مظاهر الطبيعة ، ولكن فى من مدحهم ، فقد من
محاسن المتنبى أنه (خاطب مدوحيه من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب)
وما ذلك إلا لأنه كان حين يمدح ، قادراً على تمثيل شعور الإخلاص العميق
للممدوح ، ذلك الإخلاص الذى كان يطبع مدح المتنبى بطابع الغزل (١)
ونعود إلى حديث التيجانى عن النيل ، فهو لم ينته بعد ، فقد أحب
التيجانى منظر الزوارق التى تتهاذى على صفحته ذاهبة جائية ، تحمل
الاحياء ، وقد خلصوا لأنفسهم فى فضاء واسع ، بين أمواج هادئة ،
يتناجون على انفراد ، بعيدين عن أعين الرقباء . وهنا يبدع التيجانى فى
مزج الجمالين ، جمال الطبيعة ، والجمال البشرى :

يا نيل لم تحبس لإنسان	يخفق فى جنينك قلبان
فى زورق أخضر مستبشر	مبارك الصبوة ريان
مشى بأيار على زهوه	وطوق اللج بنيسان
كقبة سكرى سماوية	تهبط فى رجفة نشوان

ولا أحب أن أفك كثيراً عند قول الشاعر أيار ونيسان، وهما من أسماء

(١) يقول التمالى ج ١/ ١٦٣ يقيمة الدهر ط الصاوى (وهو مذهب تفرد به
[المتنبى] واستكثر من سلوكه) وضرب أمثلة عدة ، منها قول المتنبى لعضد الدولة :
أروح وقد ختمت على فؤادى بحبك أن يحل به سواكا
وكفولة لسيف الدولة :

مالي أكرم حبا قد برى جسدى	وتدعى حب سيف الدولة الأمم
إن كان بمعنا حب لغرته	فليت أنا بقدر الحب تقسم
يا أعدل الناس إلا فى معاملتى	فبك الخصام وأنت الخصم والحكم

وانظر تفسيراً لهذه الظاهرة كذلك فى اليزان الجديد للدكتور مندور ٨٢ - ٨٤

شهور غربية على السودان فيما نظن . تستعمل الآن في بعض بلاد العالم الاسلامى كسوريا والعراق ، وهو استعمال في غير موضعه بالنسبة للتيجاني فقد كان في مقدوره أن يذكر بدلا منها أسماء الأشهر التي يعرفها قومه (١) . وهذا إن دل على شيء فهو يدل على تأثير التيجاني بشعر أهل الشام تأثراً واضحاً ، ثم نقف في هذه الأبيات عند قوله (في زورق أخضر مستبشر) ونربط بين وصف الزورق الأخضر بالبركة والبشرى وبين قول التيجاني في قصيدة النيل السابقة (وأمدت عليك أجنحة خضراً) نشرتها الملائكة على ماء النيل ، وبين هذا الزورق المونق الذي أعجب الشاعر بخضرته في جزيرة توتى (٢) .

والهم تمرح والزور ع مونق مخضر

فربما كان من الممكن أن نستنتج أن اللون الأخضر كان محبباً إلى الشاعر . وربما كان هذا أثراً من آثار تربيته الدينية التي تعودت أن ترى اللون الأخضر رمزاً للشرف والنسب ، أو أثراً من آثار البيئة التي تعيش على الأمطار ، وتقدس خضرة الأرض حين تهتز ، وتربو ، وتؤتي من كل زوج بهيج .

ثم لنستمع إلى مقطوعة أخرى ، موضوعها زورق في النيل كان يقل في هذه المرة شاعرنا نفسه ، وكادت الأمواج تبتلع الزورق والشاعر ولكنه نجا من الهلاك ، ثم أراد أن يعاتب النيل على ما حدث ، وبينهما ألفة قديمة ، فجعل يعاتبه كما يعاتب أحياءه من البشر ، ليس عتاب حاقق

(١) ذكر الشاعر اسم أبار أيضا في صفحة ٤٤ من الديوان ولكنه في بعض قصائده يذكر أسماء الشهور العربية صفحة ٤٤ ، ٤٥ من الديوان .

(٢) راجع ص ٢٩ فقد ذكر فيها الحضرة مرتين ، ٥٦ (غنا السحر من شواطئه الخضر)

أو غاضب أو عدو ولكنه عتاب رقيق رقيق ينم على إخلاص عميق
والفة عريقة .

هبك ابتلعت الزورق الوادعا في موجة منك فن يلمعك
وهبك أدبرت به راجعا للشط يا نيل فما يمنحك
أو هبك أطعمت به جائعا في جوفك الضخم فهل يشبعك
رققا به واستبقه يائعا إن ضمنت أضلعه أضلحك

ولعلك تحس روح الدعابة يتخلل هذا العتاب كما تحس بالالفة التي
لمسناها في قصيدته السابقة . والشاعر هنا يقارن بين نفسه وبين هذا النيل
الهائل الذي لا حد لسعته وغوره ، فيتضائل الشاعر أمامه ، ويحس
أنه كالعدم بالنسبة إليه ، ولكنه لا يرهبه ولا يخشاه ، بل يعاتبه في
دعابة ورقة : لقد كان الزورق ماضيا لسبيله في الماء ، وهو شيء ضئيل
جداً بالنسبة إليك ، فلو أنك ابتلعت في إحدى موجاتك ، فهل تنتظر منا
انتقاما ، لن نفعل معك شيئا لأننا لا نقدر عليك ، وما كان شيء بمانع
إياك من أن نحمل الزورق إلى هذا الشط أو ذاك . وماذا كنت تصنع
بجسدي وبهذا الزورق ، وليس مثلك من يحرص على التهام مثل ؛ أنت
ذر جوف ضخم تحمل في خضمك الواسع خلقاً كثيراً من الأحياء وغير
الأحياء ، فما كنت بالذي يسد منك الرمي ولا رمق مخلوق ضئيل من
مخلوقات الجماعة ، فاذا ألقى زورق أيها النيل ، مرة أخرى ، فارتق بي ،
إن لي شباباً أود أن تصونه غضا يائعا :

الطبيعة مادة الخيال

ويتجلى حب التجاني لمظاهر الطبيعة في مادة الخيال التي يعبر بها عن
خلجات نفسه ومعانيه . فهو كثيراً ما يتخذ من الأزهار ، والألحان ،

والأنوار ، والألوان وغير ذلك من محاسن الطبيعة مادة لخياله . اقرأ مثلاً قصيدة (مدينة الخرطوم) وسعرض لها بعد ، ثم اقرأ الآيات الآتية التي وصف فيها حبيبته وقد توارت خلف زجاج نافذة في منزلها . وأطلعت إلى الشاعر :

أفتلك نافذة الغناء وهذه الثـــــــــــــــــرقات أم هي عالم من نور
وهناك أنت أم الجلال أم الهوى صورا ملونة على بلور
فالموضوع هنا (غزل بالجمال البشرى) ولكنه استعار الماء والنور
والسحر والبلور والفيض ، للتعبير عن مكنون إعجابه بالحبيب الذي
استتر وراء زجاج النافذة . ولقد أولع التيجاني بالصورة المشرقة اللامعة
في شعره ، ولا سيما الأبيض منها ، فعشق من النيل (عبابه الوضىء) ،
عشق النور والبلور والماس ، وبصف ذواتين من شعر حبيبته بقوله :

هبة صيغت ذواتها من الماس س ومجد ولتاه من بلوره

وعشق الفجر ووضحه ، والضحى وإشراقه ، وسمى ديوانه إشراقاً
وأكثر من ترديد هذه الكلمة في شعره (١) وهذه من الظواهر التي
ندع علماء النفس يفسرونها كما يلد لهم .

نوتى والخرطوم :

وشعر التيجاني بوضوح إلى حد ما هذا الاتجاه الفنى الصحيح في نظم الشعر
الوطني ، التيجاني في أكثر شعره صادق الشعور ، أحس إحساساً
عميقاً مخلصاً وسرد للناس تفاصيل إحساسه . أحب التيجاني وطنه في

(١) وراجع كذلك س ١ من الديوان قوله (بيض اللائىء) وقوله س ١٢ وقام
بين الرمان البيض .

هقى ، فسر د لنا قصة شعوره بحب الوطن . اقرأ قصيدته (توتى فى الصباح) ،
وتوتى جزيرة جميلة فى وطن الشاعر ، أحس بجمالها فأحبها . ولم يشأ أن
يفعل ما فعله السطحيون من الشعراء ، لم يرفع عقيرته بالصيحات الفارغة ،
والدعوات الجوف . لم يقتل مثلاً : إن هذه الجزيرة ينبغي أن تحب ، وهى
نموذج الجزر ، ونحن فداؤها بل آثر أن تكون دعوة مدعمة بالأسانيد
الروحية ، هى هذه التفاصيل التى نجح فى نقلها إلى نفوسنا . ان توتى
جزيرة تتوسط النيل ، ويحف بها الماء ، وتحتويها شواطئ الخرطوم :
بأدرة حفرها الليل واحتواها البر

فاذا طلع الفجر انكشفت معالم الأسرّة ، وانطلقت نغبات المؤذن بين
ربا الجزيرة ، وهب النوام من مضاجعهم : وأحاط بهم ركب من
السكرانكى .

صحا الدجى وتغشاك فى الأسرّة فجر
وصاح بين الربا الغر عبقرى أغر
وطاف حولك ركب من السكرانكى أغر

وما أجمل أصوات العصفير الحرة الطليقة ، التى كانت فى المساء قد نامت
فى أعشاشها على غصون الشجر . حتى إذا تنفس الصبح أخذت تنفض
النوم من عيونها الصغيرة فى وداعة وجمال ، وإذا بالأعشاش تضطرب
بالحياة ، وتموج بالحركة ، وتختلط بالأصوات ، هبت مبكرة هبوب
الراهب المتأهب لعبادة الله . فكأن هذه السقطة المختلطة الصادرة من
العش أجراس صدرت عن الدير إيداناً باليقظة والتأهب لعبادة الله :

وراح ينفض عينيه من بنى الأيك حر
فجاج بالأيك عش وقام فى العش دير

بل هنالك أصوات مختلطة ، تصدر من الماشية ، والطاحونة ، وهي
آيات تذكرني ببساطة الشاعر الانجائزي ولیم کوپر في قصيدة وصف
فيها الصباح في يوم من أيام الشتاء ، فوصف الماشية المنزوية في أركان
الحقول ، والحظائر ، والخطاب يسرع الخطى ، والدجاج يختال إلى طعامه .
كذلك التيجاني هنا يصور لك أصوات الماشية ، وحركاتها في المزارع
الخضراء المونقة ، وصوت الطاحونة الذي يتجاوب مع أصوات البهائم :

يخور ثور وتغور شاة وتنق حمر
والبهم تمرح والزرع موندق مخضر
تجاوب الطعن واللحن والثغاء المسر

وتهب الرياح على الرمال فتجمدها كما يجمد المشط شعر الحسناء :

ترجل الريح ما انها ل من نقا أو تذمر

أرايت كيف استطاع الشاعر أن ينقل اليك قصة شعوره بحب هذه
الجزيرة ، ومواطن الجمال التي دفعته اليه ، وما أجدر أن يكون هذا
نشيداً وطنياً ، لأن مثل هذا الشعر أنجح في تحبيب الوطن إلى النفوس
من تلك الأناشيد التي تدعو إلى الفداء والتضحية . وأذكر أن للشاعر
علي محمود طه المهندس نشيداً عنوانه (نشيد أفريقي) يصف فيه فارساً
وهو في طريقه إلى وطنه وقد عاد منتصراً تكاد الفرحة تسبقه إلى أهله ،
يتغنى في طريقه بقوته ، ويتمنى أن يرى مضارب أهله ، والعداري اللاعبات
اللاتي كان يحملهن ذكريات جميلة ، وزوجته الحسناء ، وهي تنتظره على
باب كوخه ، وطفله الوحيد الذي سيحمله عند ما يراه على ذراعيه
وبناغيه . وهو بذلك يسرد تفاصيل شعوره بحب وطنه ، الأمر الذي جعلنا

نشاركه في عاطفته ، ونحب معه وطنه كما أحب . وإنما نعتبر هذا النوع من الشعر الوطني أفعال في نفس القارىء أو السامع من الأناشيد المألوفة لما أشرت إليه سابقاً ، فهو يوحى اليك بطريقة غير مباشرة ، حب هذا الوطن ، وذلك بأن يوصف ما يحس به هو في صدق وإخلاص ، غير حافى بالآفكار والاعتجابات الحسية المباشرة . ذلك بأنه يعلم ، وكلنا يعلم أن الدعوة المباشرة لا تعمق عادة النفس الانسانية . إنما الذى يجدى هو الأسلوب الإيحائى الذى ينقل اليك تفاصيل الشعور ، ويدعك تستنتج من تلقاء نفسك ماتحب . والواقع أنك إذا تصفحت الشعر الوطنى الرائع عند شعراء الفرنجة تجده من هذا النوع . ومن الأمثلة المعروفة قصيدة للشاعر دى بلاى يقول فيها :

ويح نفسى ! متى ألمح مداخس بلدى
وهى تطلق دخانها فى الفضاء ، متى
متى ألمح حديقة دارى المتواضعة ،
وهى عندى فى مقام ولاية بأسرها أو أعظم
إن داراً بناها أجدادى لى أحب دار إلى الخ . . .

فهذا الشعر ، على بساطته ، يوحى بما يقتضيه المتحمس لوطنه ، ولكنه من طريق غير مباشر .

أما قصيدة التيجانى (مدينة الخرطوم) فقد ألبسها الشاعر روحاً غير تلك التى تسيطر على قصيدته الأولى (تونى) .

القصيدة الأولى عميقة الشعور ، بسيطة ، واضحة التعبير . أما الثانية ، فمها بهرج كثير ، وأخيلة متشابكة ، يغلب فيها التكاف على البساطة ،

والخيال على العاطفة ، والموسيقى الصاخبة على الموسيقى الهادئة . ولا أدري لماذا ؟ ربما لأنه انتقل إلى مدينة البهرج والحضارة والليالي الصاخبة والحركة المستمرة ، فجاءت قصيدته معبرة عن ذلك كله في حين نجد القصيدة الأولى تتناسب مع بساطة توتى وهديرها .

ومهما يكن من أمر فهو يذكرني في قصيدته عن الخرطوم بعلى محمود طه ، إذ يستعين في وصفه لمناظر الطبيعة ومظاهر الحياة في الخرطوم بالألحان المهمة ، والشمس الخرية ، والقمر العازف ، والصفاف السحرية ، وحجرات الذهب ، وسبائك الفضة :

مدينة كالزهرة المونقة	تنفح بالطيب على قطرها
صفافها السحرية المورقة	يخفق قلب النيل في صدرها
تحسبها أغنية مطرقة	نغمها الحسن على نهرها
مهمة ألحانها مطلقه	رجعها الصيدح من طيرها
وشمسها الخرية المشرقة	تفرغ كأس الضوء في بدرها

ومع ذلك لا أنكر ما في هذه الصور المتشابهة من متعة للعين والأذن والأنف والذهن جميعاً ، ولكنني أعتقد أن قصيدة توتى - رغم ما فيها من هنات - أقرب إلى القلب وأشد تغلغلا في نفس السامع ، لأنها لغة الروح الهادئة التي لا صخب فيها ، والبساطة الصادقة التي لا تكلف فيها . على أن من الإنصاف أن نشير إلى أبيات من قصيدة الخرطوم نعدّها من آيات البينات : عندما يتحدث عن الجمال الحى في هذه المدينة فيمزج بين حبين : حبه للجمال الحى ، وحبه لجمال الوطن : هذا الجمال البشرى ، عندما يدبر النور ، يشع على الخرطوم بوجوه متألفة ، وشباب غض .

أضاءها الفجر فلما غرب أضاءها بالأنفس الناضرة

ثم ما أروع هذه الصرخة التي بقذف بها من قلب يتحرق شوقاً إلى
هذا الحسن ، ويتأكل غيره على ذلك الجمال البريء :

يا للفرير الحلو من ذا أحب ويا لذاك الظبي من ساوره

وأحب أن أختم شعر التيجاني في جمال الطبيعة بأبيات رائعة حقاً مزج
فيها بين أنواع من الجمال ، وصور فيها ألواناً مختلفة من الحب .

فهذا حب بشري أقلق شاعرنا ومنعه طعم الراحة ، حتى ليضيق بنفسه
التي لا تأخذ نصيبها من النوم إذا أقبل الليل ، والناس يأخذون منه نصيبهم ؛
هذا النوم قد أخذه أخذ مني وأعطاه ذوات العيون الجميلة لللائى لا أزال
أعطيهم من روحي وقلبي ما شئت في وقت الصحو :

ويح نفسي تنام من دونها الآن — فس شوطاً وما نهم بشوط
أخذ النوم من يدي وأعطى أعيننا لم أزل من الصحو أعطى

وهذا حب الطبيعة الذي يتمثل في تلك النجوم التي أنس إليها وهو
سهران يتفحصها ، ويمعن في مراقبتها ومناجاتها ، حتى تأكدت بينهما
الآلفة ، كما تأكدت الآلفة بين الحب وجبل التوباد ، فظل هو والنجم
يرتقبان الليل ساعة فساعة ، حتى لحا بوا كير الفجر ؛ فجعلوا بصوغان نور
الصباح خيطاً بعد خيط وشعاعاً بعد شعاع ، وأرسلوا الشمس من مركزهما ،
كأن الشاعر كان يجاور النجم في السماء ، وأمر الشاعر الشمس بأن تطلق
أشعتها على أسيرة قومه ، وترسل حرارتها إلى مضاجعهم ، فتوقظهم :

أنا والنجم سهران نعد الصبح — ح خيطاً من الشعاع لخيط
كم صباح نسجته أنا والنجم — م وأرسلت شمس من محطى
قلت سيري على أسيرة قومي واستمرى على مضاجعهم على

ثم حب الشاعر العميق لهؤلاء القوم الذين أيقظهم من نومهم .
لقد سهر بإزائهم ليناموا ، ومن أجلمهم يصيب إذا طالب بالحق ، ويخطيء
إذا غمرته ثورة الشباب :

أنا جرأهم سهرت ليستفسشوا ومن أجلمهم أصيب وأخطى